

# المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق - 7



## الخطان الرابع والخامس

تحقيق أمر « مسجد الخاتونية » الذي عنده ابن كنان « مسجد تربة الخاتون بالجبل » الذي ذكره ابن شداد

بعد أن فرغنا من إثبات أن مسجد الخاتونية البرانية لا موضع له بين زاوية انقرض والمدرسة المرشدية . وأنه ليس المدرسة الأتابكية . وحققنا أمر المدرسة الخاتونية البرانية التي أشار العلوي إلى أن حياي كامل دمشق نقل رخاها إلى مدرسته بباب الجابية ، وقلنا أنها كانت تقع بالشرف القبلي جنوبي بردي ولا علاقة لها بجبل الصالحية ، تتقدم الآن لتعريف بمسجد الخاتونية الذي نقل الأستاذ أسعد عن ابن كنان « إنه كان فيه دوس حديث في الأهرام الثلاثة . وأن آخر من دوس فيه . القاضي حسن بن العلوي الصالح » لأن هذا المسجد كما يتضح هو أيضاً غير هذه المعاهد جميعاً ولا علاقة له بها .

وكذلك سنحقق أمر مسجد تربة الخاتون بالجبل الذي ذكره ابن شداد وابن عبدالمهدي وسنثبت أنه ليس المدرسة الأتابكية ولا المدرسة التي أشار إليها العلوي وإنما هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين الأيوبي .

\*\*\*

نجد وانجا علينا ونحن ندرس مؤسسة أنشأها خاتون أي صيدة في مدينة كدمشق بها كثير من المعاهد التي بلقها الخواتون أي السيدات والتي يسمي كل منها باسم الخاتونية أن محمد ما يريد ابن كنان عند ذكره « مسجد الخاتونية »

والطريقة التي لذلك هي أن تعقب ابن كنان في جميع تصانيف كتابه « المروج الذهبية » وأن تتأكد تماماً وتدون أدنى هك مرتع وتاريخ « مسجد الخاتونية » الذي ذكره .

أولاً — يقول ابن كنان في ص ٢٨ من كتابه « المروج الذهبية بتاريخ الصالحية » مخطوط دار الكتب الملكية بالقاهرة ( ومنه نسخة مصورة بالمجمع العلمي العربي بدمشق هي التي اعتمدنا عليها ) جامع الخاتونية : « وفيه درس حديث في الأشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحى »

ثانياً — ويقول في ص ٢٩ عند تعداد مساجد الصالحية. « مسجد في سوق شعيب ... ومسجد في زقاق الأسد في سوق شعيب ومسجد الشركية ... ومسجد عند مطهرة الخاتونية وآخر قبله وآخر في حارة المقدم على الطريق السلطاني مقابل فتاة العين ... الخ ثالثاً — ويقول في ص ٣٠ عند ذكره ما آذن الصالحية .

« قال ابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية ... ومن ما آذنها ( أي الصالحية ) ... ( بالمدرسة ) المرثدية واحدة و ( بالمدرسة ) الأتابكية واحدة ... و ( بالمدرسة ) الماردانية واحدة ... وعند الخاتونية واحدة ... انتهى كلامه أقول ( أي ابن كنان يقول ) والسلامية ( أي جامع محي الدين ) واحدة والموجود منها بعد الألف ... الخاتونية والماردانية ... والآتابكية والمرعديية ... أدركتها ... الخ

رابعاً : ويقول بصحيفة ٧٥ من المخطوط « ... وأما النهار الآن في الصالحية فمن حد السكة إلى الصالحية بها خمس خطب : المنظر ، والسليبية ، والحاجية ، والخاتون ، والماردانية ... » خاصاً : ويقول في ص ٩٤ — ٩٥ عند افتخاره بالصالحية وبراعة أهلها في الصناعات والفنون بحيث لا يلحقهم فيها أحد :

« ... ويقول الناس في مثل سابق الصالحية لا يلحق . لأن الحروب فيها كذلك ... فأما العلماء والأجلاء كانت بها والحفاظ والصلحاء والمبدا والزؤماء واصحاب الشرف . وفي الصناعة ان بجامع الخاتونية مدّة مدهونة عمل رجل دهان من الصالحية فعجز أرباب هذه الحرفة عن أن ياتلوا ... وكذلك بقية الصناعات حتى المصارعين والهلوانية والطلوانية والخطاطين وأصحاب الأصوات الجميلة حتى لقد ما فر أحدكم إلى مصر فسمعت صوتته جارية فرمت بنفسها من الزبح ... ومن قول الناس في مثل : سابق الصالحية لا يلحق لأن الحروب فيها كذلك . اهـ . ويستنتج من ذلك الحقائق التالية :

- ١ — ان مسجد الخاتونية كان به درس حديث في ثلاثة أشهر من السنة
- ٢ — انه يقع بالقرب من المدرسة الجهاركية ( المعروفة بالشركية ) ومن حارة المقدم
- ٣ — أنه كانت به مأذنة في عهد ابن عميد الخادي واعتمرت إلى ما بعد سنة الف هجرية
- ٤ — انه كان أحد المساجد الجامعة الكبيرة بالصالحية وكانت به خطبة

٥ - أنه كانت به سلة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يسجز أرواب هند الخرفة عن أن يمتعوا مثلها .

وتبدأ الآن في دراسة هذه الحقائق لنصل إلى التعريف الدقيق بمسجد الخاتونية الذي عناه ابن كنان فنقول :

أولاً : أثبات أن مسجد الخاتونية هذا هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون المعروف بالمسجد الجديد .

١ - يقول النعمي في باب التربة بالجزء الثاني من كتابه المدارس مر ٤٥٠ - ٤٥١ ما نصه في التوصل لمخاص التربة الخاتونية :

« هي على نهر يزيد بصاحبة دمشق قبي المدرسة الجهاركية وهي تربة عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين زوجت نور الدين ثم صلاح الدين ( الأيوبي ) وأوقفت المدرسة التي بدمشق لحنفية وقد مرت ترجتها فيها وانطأته التي عند جامع تكز انشأتها سنة سبع وسبعين وخمسة ( ٥٧٧ هـ ) كما هو مكتوب على الشباك المظل على الطريق .

وقد وسع هذه التربة وجعلها جامعاً يعرف الآن بالجامع الجديد وأقيمت فيه الجمعة الفقير إلى الله تعالى سليمان بن حسين العقبيري التاجر وذلك بتولي الفقير إلى الله تعالى علي بن التدري وذلك في مهور سنة تسع ومبهاثة ( ٧٠٩ ) غفر الله تعالى له ولهم آمين .

ثم أنشأ الخراج أبو بكر بن المني تربة له ثمان ( التربة ) يسلك إليها من باين أحدهما من الجامع المذكور وتجاههما ايوان بحراب وأضافه إلى الجامع المذكور، ثم أوقف عليها ولده شيخ الاسلام زين الدين عبد الرحمن بن المني أودقاً ورتب في الايوان المذكور مئمة وعشرة من الفقهاء ووقفاً في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا حنفية وأوقف كتبه عليها « اه كلام النعمي .

ويقول التدري في كتابه مختصر المدارس مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في فصل التربة الخاتونية صحيفة ١٢٨ بدأ أن يلخص ما ذكره النعمي :

« ... ثم في سنة خمس وسبعين وتسعمائة ( ٩٧٥ هـ ) أمر الله تعالى عبده العالِم محمد ابن محمد المترج أن يوسع هذا الجامع فأجهد في توسيعه من جهة الغرب ووسعه بقدم مرتين بعد أن كان صيقاً فصار جامعاً واسعاً تصلى فيه المناسبات والعبادات والتلاوات آفاه الليل وأطراف النهار وأزال الخائف الغربي وجعل في هذا الذي جدده محراباً ثانياً ورتب أماماً ووقفت عليه وقفاً وأتفق عليه من ماله وساعده بعض أهل الخير تقبل الله منه ومن كل من يفعل الخير « اه .

٢ - يقول النعماني أيضاً بباب المساجد بصحيفة ٥٦٠ > ٢ . عن ابن شداد  
و« مسجد تربة خاتون على قبر يزيد ».

فهنا يصرح ابن شداد بأن مسجد تربة الخاتون الذي نقله عنه ابن عبد الهادي بص ١٣٠  
هو الواقع على قبر يزيد وهو قطعاً مسجد تربة عصية الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد  
ومن بعده صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر لنا بصفة مؤكدة أنه كان يعرف باسم  
« مسجد تربة الخاتون » حتى عهد ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ . ثم وسع وجعل جامعاً  
كبيراً مخرّبة وتقام فيه الجمعة في سنة ٧٠٩ هـ . والسبب في هذه العمارة كما نرى ما حدث فيه  
من التشيع والتخريب بسبب ما أوقفه التتار وصاحب سيس من النهب في الصالحية في ٦٩٩ هـ .  
يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٩ هـ جلد ١٤ ص ٨ من كتابه البداية والنهاية « وفي  
يوم الجمعة الرابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة  
ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرئ عليها مرسوم ببناء قبة على الثمام وذهب إليه  
الاعيان فهشموه بذلك . . . وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب  
سيس في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرافية بها (أي  
بالصالحية لوجود دار حديث أخرى اشرافية بدمشق شرقي القلعة بالعصرونية) واحترق  
جامع التوبة بالعقبة الخ » اهـ .

فبعد هذه العمارة التي جدد فيها المسجد ووسع وجعل جامعاً كبيراً مخرّبة تقوم فيه الجمعة  
بدأ الناس يسمونه « الجامع الجديد » بجانب تسميته القديمة « مسجد الخاتون » . لذلك نجد  
ابن عبد الهادي يسميه الجامع الجديد ويذكره في كتابه بهذا الاسم فيقول في ص ١٥٩ :  
« فصل في ذكر المساجد المختصة : غالب مساجد الصالحية للحنابلة الا جامع الشبلية والجامع  
الجديد الخ . و ص ١٥٥ : « المحلة الثانية والمشرون من محلات الصالحية :

حارة الدلامية وحمام المنعم . . . . . المسجد السادس بالجامع الجديد » . ولكنه حين ينقل  
اسمه عن ابن شداد يسميه « مسجد تربة الخاتون » (ص ١٣٠) وقد علمنا فيما سبق أنه بعد هذه  
العمارة أُنشئت تربة العيني وأضيفت إليه وجعل فيها الدرس والمكتبة ثم وسع الجامع بعد  
ذلك بقدر مرتين في سنة ٩٧٥ هـ . ولما كان ابن عبد الهادي قد ألف كتابه هذا في اواخر  
القرن التاسع الهجري وتوفى سنة ٩٠٩ أي قبل توسيع الجامع بمجده الكبير بنحو ٦٦ سنة  
فقد ثبت لدينا أن هذه التسمية كانت معروفة وذائعة قبل عصر ابن عبد الهادي . فذا  
أضفنا إلى ذلك أن النعماني مؤرخ لاحق لابن عبد الهادي توفى سنة ٩٢٧ هـ وعرفنا أنه كان  
يعلم التسميتين للمسجد وأنه أشار إليه في باب المساجد ثم ترجم له في باب القرب في فصل

تربة عصمة الدين خاتون . ومن التوحة التذكارية المنقوش عليها اسم البرانية وتاريخ اثناء التربة سنة ٥٧٧ هـ لا يزال موجودة في موضعها باواجهة الشرقية للجامع كما شاهدهما النسيجي . فلا يكون هناك إذن أي شك في أن مسجد الخاتونية الذي ذكره ابن كنان وكان به درس الحديث في الأشهر الثلاثة هو المسجد الجديد هذا وهو نفسه الذي يسميه ابن شداد « مسجد تربة الخاتون في كتاب المساجد » ١٣٠ وموقعه جنوب الجهاركية ( المعروفة محلياً باسم الشركية أو انجركية ) بحارة المقدم والدلاسية قرب العُرف الشمالي للزقاق الآخذ من الجسر الأبيض إلى الجهاركية .

ثانياً : يشير ابن كنان في ص ٢٩ عند ذكره مساجد العاطية إلى مسجد الخاتونية في المنطقة الواقعة بين الجهاركية وحرارة المقدم .

وقد ثبت لدينا بما ذكرناه أننا أن مسجد الخاتونية هذا هو الجامع الجديد ولا يوجد في هذه المنطقة ( بين الجهاركية وحرارة المقدم ) مسجد آخر يمكن أن تنطبق عليه هذه التسمية سواء علاوة على أن التوحيث التذكاريتين تثبت لحدائهما بناء تربة عصمة الدين خاتون سنة ٥٧٧ هـ وصحارة المسجد سنة ٧٠٩ هـ لا يزالان موجودين احداً بالواجهة الشرقية للحرم والثانية على عتب المدخل . ولا ندرى لماذا حرص ابن كنان على عدم ذكر اسم الجامع الجديد مع ان المؤرخين الذين سبقوه من أمثال ابن عبد الهادي والنسيجي والعلوي قد عنوا بالاشارة إليه . والظاهر لنا أن هاتين التسميتين قد عاقت كل منهما مع الأخرى ولم يكتب لاحداهما العتب فظننا مشهورين ومعروفين حتى الوقت الحاضر . ودلينا على ذلك ان أهل العاطية يسمون هذا المسجد تارة مسجد الخاتون وأخرى بالمسجد الجديد .

واننا اطلعنا على كشف بيان الأماكن الأثرية في مدينة دمشق المصنفة وقتاً لتقرير رقم ١٦٦ ل ر التلويح في ٧ تشرين الثاني ( أي نوفمبر ) سنة ١٩٣٣ فوجدنا به ما يلي : —  
« الجوامع ... وجامع الخاتونية ( يحي ) الشركية » أي ان دائرة أوقاف دمشق تأخذ حتى عصرنا هذا بالاسم القديم لهذا المسجد مع تسميته انشائية المتداوله وهي « المسجد الجديد » ثالثاً : ينقل ابن كنان عن ابن عبد الهادي أن مسجد الخاتونية هذا كانت له مأذنة ويقول ابن كنان ان هذه المأذنة استمرت الى ما بعد سنة الف هجرية .

ويستنتج من ذلك ان المأذنة التي يشير اليها كانت موجودة في أواخر القرن التاسع الهجري أي انها ترجع قطعاً الى عمارة سنة ٧٠٩ هـ لأن ابن عبد الهادي الذي روى هذا توفى سنة ٩٠٩ هـ أي قبل العمارة الكبرى الثانية التي حدثت سنة ٩٧٥ هـ لأن هذا المسجد كما ذكرنا مرّ في ثلاثة أدوار معمارية هامة :

الدور الأول : لتأؤد سنة ٥٧٧ هـ

الدور الثاني : لتأؤد وتوسيعه في سنة ٧٠٩ هـ

الدور الثالث : لتوسيعه في سنة ٩٧٥ هـ

وقد قلنا ان مسجد الخاتونية هو الجامع الجديد. ولو كان ابن كنان يقصد مسجداً آخر لما ذكر مساجد الخواتين الأخرى التي فيها ما أذن بأسمائها المشهورة. وقد ذكر منها صراحة مسجد الماردانية وهو الى الجنوب عند الجسر الأبيض والأتابكية والمرعديّة بجادة بين المدارس إلى الغرب وليس في هذه المنطقة مساجد خواتين أخريات ذوات ما ذن يمكن أن تضاف إلى هذه المساجد صرى مسجد تربة الخاتون العسمية (عصبة الدين خاتون) بالجامع الجديد. وابقاً : إن هذا المسجد كان في عهد ابن كنان من المساجد الحجة المنظمة الموجودة في المنطقة المحصورة من حد السكة إلى الصالحية x والتي بكل منها خلية. وهذه المساجد الخمس هي :  
جامع المنظر — أي جامع الخنابة المعروف بجامع الجبل .

جامع السامية — المعروف بجامع محي الدين ابن عربي .

جامع الحاجية — وقد زالت عنه من الصالحية ولا أثر له الآن .

جامع الخاتون — وهو الجامع الجديد .

جامع الماردانية — وهو جامع المدرسة الماردانية المسمى بجامع الجسر الأبيض ولا يزال حتى الوقت ناضر هذه الجوامع موجودة عدا جامع الحاجية فقد قلنا إنه زالت عنه وكان موضعه مقابل حمام الحاجب جنوب غربي المدرسة العمرية. ولا يوجد في المنطقة المحصورة بين جامع الخنابة من الشرق وشارع سكة المدارس من الغرب والجسر الأبيض من الجنوب جوامع أكبر من هذه من حيث المنظمة والاتساع وإن كانت المدرسة الماردانية مبنية على طراز المدارس لا على طراز المساجد الجامعة الكبيرة .

خاصاً : ذكر ابن كنان في معرض تناخره بالصالحية وعماثها ورجالها وصناعاتها وفتوحها أن مسجد الخاتونية بهذا كانت به مدنة مدفونة بديعة الصفاة بحيث يعجز أبواب هذه الجرفنة عن أن يدعروا مثلها أو يحاكوها .

وقول عمر أن هذه المدنة لا تزال موجودة بالجامع الجديد في موانحة الغرب وهي مدفونة بالدهانات المصنية (على حد تسمية هذه الصناعة بدمشق) وهي وإن كانت قد امتت أجزاء منها وبنيت ألوانها وحالت بهجتها فلا يزال بها أثر يبين عن دقة صناعة هذا الفنان الصالح (سنة الـ الصالحية) وتفوقه وعقريته وأبصر في مساجد الخواتون جميعاً بالصالحية كلها مثل هذه المدنة بها نائها وصناعتها . (له بقية) السير المحرر سبب